قراءة رسائل البابا يوحنّا بولس الثاني عن الأزمة اللبنانيّة

الأب موريس ماري مارتان اليسوعيّ

في الثاني عشر من حزيران ١٩٩١ وجّه قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني دعوةً إلى عقد جمعيّة خاصّة للسينودس من أجل لبنان. وتلك الدعوة مرتبطة وثيق الارتباط بنظرة البابا إلى مستقبل لبنان في إطار الحرّيّة والكرامة والاستقلال جميع بنيه. وكان قداسته قد شرح أبعاد رؤياه تلك في رسائل وجّه الثلاثة الأولى منها في مطلع أيّار ١٩٨٤ إلى البطريرك المارونيّ أنطونيوس بطرس خريش، وإلى جميع اللبنانيّين، وإلى سائر الأساقفة الكاثوليك في العالم.

والمقالة التالية هي قراءة تحليليّة للرسائل الثلاث المذكورة وما تبعها من رسائل وخطب خاصّة بلبنان، أعدّها المغفور له الأب موريس ماري مارتان الذي توفّي في صيف السنة المنصرمة ١٩٩٢. وكان الراحل من المهتمّين كثيرًا بشؤون لبنان والمشرق العربيّ إن من منطلق نشاطه الفكريّ أو بحكم المناصب التي شغلها لا سيّما في رئاسة إقليم الشرق الأدنى للرهبانيّة اليسوعيّة بين ١٩٨١ و١٩٨٧.

في أوّل أيّار (مايو) ١٩٨٤، كتب البابا يوحنّا بولس الثاني ثلاث رسائل عن المأساة اللبنانيّة:

- الأولى: «رسالة إلى غبطة البطريرك الكردينال مار أنطونيوس بطرس خريش»
- والثانية: «رسالة إلى جميع اللبنانيّين»
- والثالثة: «رسالة رسوليّة إلى السادة مطارنة الكنيسة الكاثوليكيّة في العالم».

تتوقّف هذه القراءة بوجه خاصّ عند الرسالة الثانية. ولكنّنا استندنا أيضاً، لكي نُدرك أهمّيّتها، إلى الرسالتين الأولى والثالثة، فضلاً عمّا صدر من وثائق أخرى في السنة ١٩٨٥، وهي:

- رسالة البابا «إلى غبطة الكردينال مار أنطونيوس بطرس خريش، بطريرك أنطاكية المارونيّ»، بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥ (الرسالة ٤)،
- رسالة البابا «إلى غبطة الكردينال مار أنطونيوس بطرس خريش، بطريرك أنطاكية المارونيّ» بتاريخ ١٩٨٥/٤/٥ (الرسالة ٥)،
- خطاب البابا أمام الوفد البرلمانيّ اللبنانيّ في الفاتيكان، بتاريخ ١٩٨٥/٣/٢٩ .
- خطاب البابا أمام مجموعة من النوّاب اللبنانيّين الموارنة في الفاتيكان، بتاريخ ١٩٨٤/١/١٠ [١].

في هذه القراءة، نتتبّع نصّ الرسائل، مستخلصين ما تتّسم به من خطوط جوهريّة وسياق داخليّ. وهذا ما فرض علينا السير على الطريقة التالية:

١) مقاربة جماعيّة: جميع اللبنانيّين.
٢) ديناميّة تاريخيّة: من لبنان الأمس إلى لبنان الغد.
٣) المسيحيّون مسؤولون عن الرجاء.

الخاتمة: ملاحظات وأسئلة.

١ ـ مقاربة جماعيّة

«جميع اللبنانيّين»، «الأمّة اللبنانيّة جمعاء»

الملاحظة الأولى يوحي بها عنوان الرسالة الثانية، وهو «رسالة إلى جميع اللبنانيّين». يجدر بالذكر أنّ البابا لا يوجّه كلامه أوّلاً إلى المسيحيّين، بل إلى جميع اللبنانيّين: يحسن بنا أن نتوقّف عند تلك العبارة التي تتردّد في الرسائل

(١) أُخذت الشواهد من منشور صدر عن مطرانيّة بيروت المارونيّة والمركز الكاثوليكيّ للإعلام (جلّ الديب ـ لبنان).

الثلاث بإلحاح مقصود. نجدها أوّلاً أربع مرّات في نصّ الرسالة رقم ١ إلى غبطة البطريرك، مع أنّ الرسالة مؤلّفة من ٢٦ سطرًا فقط. فالبابا يذكر أوّلاً بأنّه «شاطره» هو وسائر بطاركة لبنان الكاثوليك «مخاوف جميع اللبنانيّين وآمالهم» وأنّه أراد أن يوجّه كلامه «إلى جميع أبناء بلادكم العزيزة»، في رسالة تضامن «مع الأمّة اللبنانيّة جمعاء». ويسأل البطريرك أن ينقل هذه الرسالة إلى البطاركة والمطارنة «وإلى جميع المواطنين».

والعبارة نفسها تتردّد في الرسالتين رقم٢ ورقم ٣. ففي الرسالة ٢، يكرّر في الختام أنّه يوجّه كلامه «إلى جميع اللبنانيّين»، ويوضّح في سياق الرسالة أنّه يريد «أن يوجّه كلمة صداقة إلى جميع اللبنانيّين: كاثوليك ومسيحيّين ومسلمين». وفي الرسالة ٣، يُخبر الأساقفة الكاثوليك في العالم كلّه بأنّه وجّه «إلى جميع اللبنانيّين» رسالة «ثقة بلبنان وبجميع أبنائه التوّاقين إلى...»، ويدعو إلى الصلاة «من أجل إخوتكم المسيحيّين اللبنانيّين» و«من أجل إخوتنا اللبنانيّين غير المسيحيّين»، ويكرّر التعبير عن «تقديره للبنانيّين غير المسيحيّين».

في هذا الإلحاح، وقد يبدو مُملاً، دليل بليغ على تفكير البابا وموقفه، فهو

- يخاطب اللبنانيّين، أي الأشخاص: ففي ذلك «شهادة على التقدير والثقة اللذين يكنّهما البابا لكلّ منهم» (رسالة ١).
- يخاطب جميع اللبنانيّين. مسيحيّين ومسلمين، «دون تمييز طائفيّ أو انتماء دينيّ» (رسالة ٤).
- يخاطب أيضًا «الأمّة اللبنانيّة»: فمنذ الرسالة ١، يوجّه «رسالة إلى الأمّة اللبنانيّة جمعاء». ونقد أكّد ذلك بوضوح مرّة أخرى في رسالته إلى البطريرك بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥: مذكّرًا فيها بأنّه في ١٩٨٤/٥/١، كان يقصد «الأمّة اللبنانيّة بكاملها».

فهو يتحدّث إذًا عن لبنان على أنّه واقع قومي، وهذا يعني بوضوح أنّه يتّخذ موقفًا مؤيّدًا لوجود ومستقبل الأمّة اللبنانيّة، ويتّضح هذا الأمر إلى أقصى حدّ في سياق هذه القراءة.

لا يُستغرَب أن يخاطب البابا المسيحيِّين مباشرةً، فيذكُرهم بمسؤوليّتهم في الأمّة بكاملها، ولقد يتساءل بعضهم بأيّ حقّ يخاطب البابا جميع اللبنانيِّين، المسلمين والمسيحيِّين على السواء. إنّ هذه الطريقة تناسب نظرة لاهوتيّة عميقة عند البابا، وهي نظرة شَرَحها، منذ بدء حبريّتهِ، في رسالته العامّة «فادي الإنسان» بتاريخ آذار (مارس) ١٩٧٩ . فيمكننا أن نعود إلى الفقرة ١٤ من هذه الرسالة، وهي تبحث في موضوع «الإنسان هو طريق الكنيسة». جاء في هذه الفقرة ١٤ أنّ جميع طرق الكنيسة تؤدّي إلى الإنسان: «... إنّ الإنسان، في ملء حقّ وجوده وكيانه الشخصيّ، وكيانه الجماعيّ والاجتماعيّ أيضًا، ـ في دائرة عائلته، وفي داخل مجتمعات وأوضاع شتّى، وفي إطار وطنه أو شعبه (وربّما بقدر أكبر في إطار عشيرته أو قبيلته)، وحتّى في إطار البشريّة كلّها ـ، ذلك الإنسان هو طريق يجب على الكنيسة أن تجتازه في القيام برسالتها: إنّه طريق الكنيسة الأوّل والأساسيّ، ذلك الطريق الذي رسمه المسيح نفسه، الطريق الذي يمرّ، على وجه ثابت، بسرّ التجسّد والفداء...».

٢ ـ ديناميّة تاريخيّة: من لبنان الأمس إلى لبنان الغد

إنّ الرسالة ٢ «إلى جميع اللبنانيّين» تقوم على سياق ينطلق من الماضي نحو المستقبل، عبر الأزمة الحاليّة. لا يتردَّد البابا في الاتّجاه نحو المستقبل، إذ إنّه لا ينفكّ عن التذكير بذلك، داعيًا اللبنانيّين إلى القيام بالخطوة نفسها: إنّه يريد أن يقول «كلمة من أجل المستقبل». والشرط هو قبول تحدّي المأساة اللبنانيّة، بالعودة إلى فحص ضمير يستند إلى التراث الماضي.

آ ـ لبنان الأمس «في أساس لبنان الغد».

لبنان الأمس هو:

- «حضارة ثمينة»، يرقى عهدها إلى الفينيقيّين
- «تلاقي الأديان» و«التعايش الصادق» (رسالة ٣)
- «حوار ثقافيّ بين الشرق والغرب»

- «مبادرات مسكونيّة»
- قِيَم «الحرّيّة والتفاهم والضيافة وانفتاح الروح»
- «مجتمع تُنعشه مثاليّة ديمقراطيّة متعدِّدة».

فهو، بكلمة وجيزة، «تراث ثمين لا يمكن أحدًا أن يسلّم بأن يراه في طريق الزوال»، وتراث «روحيّ» (رسالة ٣) وثقافي (رسالة ٣).

ب ـ تحدّي المأساة اللبنانيّة

إنّ ويلات لبنان اليوم هي:

+ العنف ونتائجه:

«إنّ موجة العنف الرهيبة قد خلقت، في هذه السنوات الأخيرة، مناخًا من الشكّ والارتياب يحمل أحيانًا على نبذ مَن لا يفكّر مثلنا أو لا يدين بالدين نفسه».

+ عناصر تفتُّت:

«أمّا الغطرسة وحبّ السيطرة والتعصّب والتخاذل أو الخوف، فيحمل هذا كلّه عناصر موت لا تُضعف الروح الوطنيّة وحسب، بل قد تقود بلادكم إلى تفتُّت محتوم».

«تجربة الانفصالات وما تولِّده بسهولة من حذر» (رسالة ٣)، و«مناخ من الشكّ والارتياب».

«عوامل داخليّة، بل وخارجيّة أيضًا شوّهت وجه لبنان».

جـ ـ ديناميّة الانتقال من الأمس إلى الغد، عَبْرَ الأزمة الحاليّة: الثقة وفحص الضمير.

ـ الثقة:

+ أوّلاً «ثقتكم بلبنان نفسه»: فلا يجوز للحرب، مهما طالت، أن تنال من هذه الثقة المتأصّلة في التراث المذكور، أي في تاريخ غنيّ بالإنسانيّة.

+ والداعي إلى هذه الثقة هو «الثقة التامّة بالإنسان».

+ ثقة بالإنسان الذي هو صورة الله:

«إنّ الفشل المتتالي وخيبات الأمل، والاقتتال، وحتّى المجازر، لا تستطيع أبدًا أن تُطفِئ تمامًا هذه الشعلة الصغيرة التي ترتجف في قلب كلّ إنسان، والتي تُدعى المحبّة والتي بها يشابه هذا الإنسان، أكثر ما يشابه، الله نفسه».

وتلك الشعلة الصغيرة هي التي تمكّن، رغم كلّ شيء، من «القبول بالتلاقي كبشر، والتعاطي كإخوة». وتلك الثقة التامّة بالإنسان، وهي موضوعٌ مفضّل عالَجه البابا يوحنّا بولس الثاني، تقوم على ناسوت يسوع: «ليس هناك إلاّ طريق واحد، وهو الطريق الذي اختُبر منذ قرون والذي هو، في الوقت نفسه، طريق المستقبل. ولقد دلّ المسيح الربّ على هذا الطريق بوجه خاصّ، حين اتّحد نوعًا ما بكلّ إنسان» (الرسالة «فادي الإنسان»، الفقرة ١٣، مستشهدةً بالدستور العقائديّ «الكنيسة في عالم اليوم» الفقرة ٢٢).

لقد وضّح البابا، في توجيه كلامه إلى المسيحيّين، أنّ تلك الثقة التامّة بالإنسان تستند إلى فصح القائم من الموت: «وبه قضى الله على العداوة» (أف ٢/ ١٦). وذكّر بأنّه يكتب رسالته في زمن الفصح: «فكلمته من أجل المستقبل» هي «كلمة قيامة». وهذا ما دفعه إلى التشديد على رسالة المسيحيّين.

- فحص ضمير:

+ «كلّ لبنانيّ مسؤول في النهاية عن مستقبل بلاده... على كلّ واحد أن يكون مستعدًّا لإجراء فحص ضمير، أو يسلّم بالتخلّي عن شيء ما، أو يعيد النظر في شؤونه...».

+ وهذا الفحص يعني «الأشخاص والجماعات».

وفي نظر البابا، يُعدّ فحص الضمير هذا ساعةً ضروريّة للخروج من الأزمة وقبول التحدّي. وهذا ما حمله على العودة إليه في رسالته إلى البطريرك بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥ (رسالة ٤). ذلك بأنّ السنة ٨٤ كانت سنة اضطرابات إلى حدّ بعيد، فبدا للبابا أنّ فحص الضمير هذا لم يجرِ حتّى ذلك الوقت. فجاءت رسالته بتاريخ ١/٢٥ تذكيرًا ملحًّا وعرضًا للموضوع نفسه، وناشد البطريرك خاصّة:

«فلتنطلق تلك الدعوة من بكركي لتلاقي كلّ مواطن لبنانيّ يحبّ بلاده، ويدرك مسؤوليّته الشخصيّة». وجاءت الرسالة أيضًا دعوة إلى المسؤولين عن مختلف الطوائف. فمن شأن فحص الضمير هذا أن يرجِّح «القِيَم التي تجمع وتوحِّد»، بفضل الإرادة المشتركة الآيلة إلى السلام والحوار». وهذا ما يفترض وجود الثقة بقدرة كلّ واحد على أن يصالح ويحاور قريبه». والبابا يشدِّد على تلك الثقة: «إنّي أُكرِّر أنّ الثقة المتبادلة ضروريّة. إنّها في أساس احترام الأشخاص...». وفي الخطاب أمام الوفد البرلمانيّ بتاريخ ١٩٨٥/٣/٢٩، طلب رفض منطق الخلافات والتناقضات»... «لفتح الطريق المؤدّي إلى التفاهم والاحترام المتبادل».

«فبفضل هذا التجدُّد الباطنيّ فقط، يمكن القيام بنهضة وطنيّة حقيقيّة»، «يمكن قيام اتّفاق عادل وطويل المدى حول المسائل المتعلّقة بالاعتراف المتبادل بحقوق وميزات كلّ طائفة بمفردها» (رسالة ٤). وهذا يعني المسيحيّين على وجه خاصّ.

٣ ـ المسيحيّون «مسؤولون عن الرجاء»

في القسم الأخير من الرسالة إلى جميع اللبنانيّين، يتوسّع البابا في «دور المسيحيّين الخاصّ»: «إنّكم مسؤولون عن الرجاء، عن ذلك الرجاء الذي ينفجر... من المسيح القائم من الموت». في الواقع، هذا الدور مزدوج، والبابا يشير إلى وجهَيه في ختام الرسالة ٤ إلى البطريرك:

«وليدركوا (المسيحيّون)، تمشّيًا مع الأمانة لدعوتهم، كيف يصبحون تلامذة المسيح الذي يعلّمنا المسامحة والرأفة والتفهّم. وليكونوا جميعًا، في الوقت نفسه، الشهود الشجعان للحقيقة، عندما يتعلّق الأمر بعيش القِيَم الإنجيليّة وإعلانها بحرّيّة تامّة».

آ ـ خدمة المصالحة

«على الكنيسة في لبنان أن تؤمِّن، بشكل نبويّ، هذه الخدمة، خدمة الحوار والمصالحة التي تنبع من قلب المسيح...». لا يخفى على البابا ما في لبنان من

ويلات، كما ذكّرنا بها في كلامه على التحدّي. وهو يعلم «بأنّ الأمّة... تواجه ما يجرّه عليها عنفٌ مزمن من أوخم العواقب». «إنّ موجة العنف الرهيبة التي طغت في هذه السنوات الأخيرة قد خلقت مناخًا من الشكّ والارتياب...». ويذكّر «بالفشل المتتالي وخيبات الأمل والاقتتال، وحتّى المجازر...»: «في لبنان لا يزال الإنسان فريسة انقسامات وتنابذ من جميع الأشكال» (رسالة ٣). والرسالة ٤ إلى البطريرك، بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥، هي أشدّ إلحاحًا: «وإذا ما كان الرجاء الذي يُنعشه الإيمان لم يغب يومًا، وما زال صامدًا عند الأكثريّة من اللبنانيّين، فإنّي أعلم أيضًا أنّ شبح مآسي أُخرى يساورهم...». «فليتوقّف الحقد والبغض والقتال الأخويّ أو الرغبة في الانتقام، كي لا يثقل عبء الآلام...» (رسالة ٤). وهو يعلم، كما شرح في خطابه أمام الوفد البرلمانيّ بتاريخ ٨٥/٣/٢٩ «أنّه ليس من السهل تبصّر الطريق المؤدّي إلى التفاهم والاحترام المتبادل... كذلك ليس من السهل قبول أيّ طرف للطرف الآخر ما دام هناك خوف من الحاضر ومن المستقبل، بالنسبة إلى حياة الفرد أو بالنسبة إلى حياة الجماعات...». في ذلك الإطار، طَلَبَ البابا رفض «منطق الخلافات والتناقضات» للتعرّف كتلامذة يسوع بحسب منطق المحبّة (راجع في الرسالة ٢: «إنّ المحبّة وحدها تأتي العظائم»، ومن الرسالة ٣ الإشارة إلى صليب المسيح). تلك هي «البشرى التي يجب إعلانها حولكم». ولذلك، فإنّه يشدّد على خدمة المصالحة هذه: وهو يذكرها مرّتين في الرسالة ٣: «إنّه من الأهمّيّة بمكان أن تبدو الجماعة المسيحيّة أنّها خميرةُ وحدة ومصالحة». ويطلب إلى الأساقفة الكاثوليك في العالم كلّه أن يشاركوا «في ابتهال الكنيسة في لبنان، لتُعطى النعمة فتنهل من صليب المسيح، الذي تحمله في جسدها، القوّة لتحيا يوم الله ومثاليّة الأخوّة والمصالحة». وهذا شأن الرسالة ٤، بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥، فإنّها تلخّص بهذه الخاتمة: «أتوسّل إلى الله... لكي يمنح الشعب اللبنانيّ القدرة على تجاوز المصاعب الحاليّة لكي يتسلّق بشجاعة الطريق المؤدّية إلى الأخوّة والمصالحة».

وكيف التقدّم في هذا الطريق؟ بالمسامحة والأخوّة والوحدة:

+ «إستنبطوا الوسائل لتغلّبوا قوّة الغفران الخلّاقة والرحمة».

+ «أخلقوا، حيثما تعيشون وتعملون، بيئةً أخويَّة». «والقبول بالتلاقي كبشر، والتعاطي كإخوة، يشكّلان بدء الحلّ. وهذه مجاهرة برفض التسليم بالفشل».

+ «تعاونوا ومواطنيكم من ذوي الإرادة الصالحة... لتنسجوا مجدَّدًا لحمة الحياة الوطنيَّة».

+ «(إنّ النهضة الوطنيَّة) ستكون من صنع إرادة الشعب اللبنانيّ بأكمله، تجمعه الرغبة الواحدة في بناء وطن...» (رسالة ٤). «فكّروا في الواقع بما تمكّنتم من بنائه معًا، وهو مجتمع حوار وازدهار كان موضوع حسد الجميع».

والبابا، في توجيه كلامه إلى أساقفة العالم أجمع، لا يخاف أن يصرخ: «وأيّة كارثة للعالم إذا صار هؤلاء وأولئك إلى تنابذ باسم الدين».

شرط أساسيّ: «أعطوا شهادة عن جماعة متّحدة».

إنّ هذه «الشهادة» عن جماعة متّحدة تسعى إلى تجاوز الخلافات ورد ذكرها في أربعة أسطر من الرسالة ٢ بتاريخ ١٩٨٤/٥/١ . لكنّ هذه القضيّة أصبحت شاغلة البال، حتّى إنّ البابا اضطُرّ إلى كتابة رسالة خاصّة إلى البطريرك في هذا الموضوع بتاريخ ١٩٨٥/٤/٥ . فلم يتردّد في القول: «لا يَرضى الله أن يساهم انقسام المسيحيّين في إثارة الشكّ حول خلاص لبنان بالذات...». «على المسيحيّين اللبنانيّين واجبُ التغلّب على المعارضات، حتّى ولو بدت مبرَّرة في ضوء الأحداث الحاليّة الخطيرة». وهذا شرط «ليحقّقوا بطريقة نبويّة الحوار والمصالحة...».

ب ـ الحقّ في العيش المسيحيّ بحرّيّة

تذكّر الرسالة ٢ بإخلاص مسيحيّي الشرق، بإخلاصهم في الإيمان وبتضحياتهم. «لا يمكن (الكنيسة جمعاء) أن تسلّم بأن ترى هذا الحضور لها المكتسب بفضل هذا الاستمرار البطوليّ، يتضاءل في لبنان وفي غير مكان».

ولذلك، فبعد أن كرّر البابا للمسيحيّين اللبنانيّين كلمة بولس الرسول «لا

تجازوا شرًّا بشرّ... لا يغلبكم الشرّ، بل اغلبوا الشرّ بالخير» (روم ١٢/١٧ – ٢١)، أضاف: «لا تخافوا ولا تستحيوا أبدًا، عندما يجب أن تدافعوا عن حرّيّاتكم وخاصّةً عن حرّيّة القِيَم الإنجيليّة التي تحيونها معًا». ومن شأن «الإرادة المشتركة الآيلة إلى السلام والحوار» أن تؤدّي «إلى الاعتراف المتبادل بحقوق وميزات كلّ طائفة بمفردها» (رسالة ٤). ولقد عبّر عن تلك الأفكار نفسها في خطابه أمام الوفد البرلمانيّ اللبنانيّ بتاريخ ١٩٨٥/٣/٢٩: «... بناءُ وطن... تكون فيه الحقوق والتقاليد وخصائص كلّ طائفة محترَمةً ومعترفًا بها». ولكنّنا نجد أوضح تعبير له عن الطوائف المسيحيّة في الخطاب الذي ألقاه في ١٩٨٤/١/١٠ أمام مجموعة محدودة من النوّاب الموارنة المستقلّين:

«إنّ كرسيّنا الرسوليّ... يؤيّد ويشجّع كلّ جهد يُبذل في سبيل الاعتراف بوجود الطوائف المسيحيّة وحقوقها. ليس المقصود هنا، ولا شكّ، أن يطالَب بامتيازات غير مشروعة، بل أن يُضمَن فقط في العدالة وجود تلك الطوائف ونشاطها وتقدُّمها. فتصبح بذلك أشدّ قدرة على الشهادة، في المجتمع اللبنانيّ المتعدّد، للقِيَم الإنجيليّة وتشكّل إسهامًا وغنى يستفيد منهما البلد كلّه».

وفي الرسالة إلى الأساقفة (رسالة ٣)، يتّسع أفق البابا:

- يقول إنّه يعي، مع الكنيسة كلّها، أنّ «ازدهار المسيحيّة في لبنان هو شرط لوجود الأقلّيّات المسيحيّة في الشرق الأوسط».
- ويدعو إلى «المحافظة على الكنائس الشرقيّة التي كانت مهدًا لإيماننا والتي نحن مدينون لها بالكثير».

ملاحظة: لا يشرح البابا كيف يتمّ الربط بين واجبَي المسيحيّ (واجب العمل على المصالحة وواجب الدفاع عن الحرّيّة المسيحيّة)، وهما واجبان قد يبدوان متعارضَين وكثيرًا ما يصعب ممارستهما معًا. على كلّ حال، لا نُفسِّر فكرته تفسيرًا صحيحًا، إن اتّخذنا موقفًا من جانب واحد أو إن رأينا فيها تبريرًا لتصرّف منفرد. فالبابا يذكّر مُلحًّا بمطلبَين من مطالب الوجود المسيحيّ من شأنهما أن يُلهما تفكير المسيحيّين اللبنانيّين وسلوكهم.

الخاتمة: ملاحظات وأسئلة

١ ـ إيمان اللبنانيّين

أشار البابا مرّتين إلى إيمان اللبنانيّين بالله، أي إيمان المسيحيّين والمسلمين. في المرّة الأولى في رسالته إلى جميع اللبنانيّين بتاريخ ١٩٨٤/٥/١: فبعد أن كتب عن «القبول بالتلاقي كبشر والتعاطي كإخوة»، واصل: «واللبنانيّون مؤمنون، ويعرفون أنّ الخالق وَكَلَ إليهم الأرض ليجعلوها قابلة للسكن ولاستقبال الجميع». وفي خطابه أمام الوفد البرلماني اللبناني، وبعد أن ذكّر «بالثقة الأساسيّة بالإنسان»، قال: «إنّي أعلم أنّ جميع اللبنانيّين متمسّكون بتاريخ بلدهم ويعرفون خصوصًا كيف يعودون بإيمانهم نحو الخالق الأوحد، إله المحبّة والسلام».

٢ ـ الطائفة المارونيّة

تجدر الإشارة إلى أنّ البابا، في رسائله ١ و٢ و٣ و٤، يتحدّث عن كنيسة لبنان وعن مختلف طوائفها وعن المسيحيّين اللبنانيّين، من غير أن يسمّي الطائفة المارونيّة (بغضّ النظر عن ذكر لقب «بطريرك الموارنة (رسالة ١) أو «بطريرك أنطاكية الماروني» (رسالة ٤ ود). لكنّه ذكر الموارنة قبل كتابة الرسائل الثلاث الأولى، في خطابه بتاريخ ١٩٨٤/١/١٠ أمام مجموعة ستّة نوّاب موارنة مستقلّين: «أحيّي فيكم أوّلاً أعضاء الطائفة المارونيّة الكريمة، التي ما زالت الكنيسة جامعة تقدّر، لا تراثها الروحيّ فقط، بل شجاعة بنيها أيضًا، فقد شهدوا لإيمانهم بالمسيح حتّى الاستشهاد أحيانًا».

وفي الرسالة د، حيث يُظهر البابا اهتمامًا كبيرًا بوحدة المسيحيّين اللبنانيّين، يتحدّث صراحةً عن دور البطريركيّة المارونيّة: «إنّ بطريرك أنطاكية المارونيّ الذي يعتبره اللبنانيّون رمزًا لبلدهم وضمانة للقيم الخاصّة بكلّ جماعة من جماعاته...».

٣ ـ مساعدة لبنان على استعادة وجهه الأصيل» (رسالة ٢)

في الرسالة ٣، وردت عبارة «بَعْث بلد جديد وأمين، في الوقت نفسه، لتراثه الروحيّ الثمين». لكن البابا يشدّد على الأمانة أكثر منه على التجديد، فإذا كان لبنان لا يستطيع أن يبقى إلاّ بالأمانة لتراثه، فلا يستطيع أيضًا أن يبقى إلاّ باتّخاذ وجه جديد (على الصعيد السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ...). «وهذا ما سيكون عمل اللبنانيّين وحدهم، وهو عمل يقتضي له صبر وسخاء».

٤ ـ الوجه الثقافيّ

لمّا كان هذا الموضوع على جانب كبير من الأهمّيّة لمستقبل لبنان، نذكر هنا الفقرات التي ورد فيها لفظا «ثقافة» و«ثقافيّ».

- في خطاب ١٩٨٤/١/١٠: «تعايُش مثمر بين مختلف الأديان والثقافات».
- في الرسالة ٢، في الكلام على التراث: «الحوار الثقافيّ بين شرق وغرب».
- في الرسالة ٣: يتحدّث البابا عن «لبنان ديمقراطيّ، منفتح على الآخرين، في حوار مع الثقافات والديانات...».
- في الرسالة نفسها، يشير إلى أنّ «مسيحيّي العالم العربيّ... أسهموا في نشر رسالة ثقافة...».

٥ ـ التسليم بالتخلّي عن شيء ما

هذه العبارة يكرّرها البابا بوجه من الوجوه، حين يتناول موضوع مستقبل الأمّة اللبنانيّة. ففي رسالته إلى جميع اللبنانيّين، يقول: «على كلّ واحد أن يكون مستعدًّا لإجراء فحص ضمير، أن يسلّم بالتخلّي عن شيء ما، أن يُعيد النظر في شؤونه...». وفي رسالته إلى الأساقفة الكاثوليك في العالم كلّه، تجدر الإشارة إلى عبارة «في لبنان وفي الخارج»، في الفقرة التالية: «على جميع الذين يحبّون هذا البلد أن يساعدوا اللبنانيّين على أن يُعيدوا بناءه بجهودهم الخاصّة، ملتفّين حول السلطات الشرعيّة. ولن يحصل هذا إلاّ إذا كان كلّ واحد مستعدًّا، في لبنان وفي الخارج، أن يضحّي بمصالحه الخاصّة، لكي يتغلّب الخير المشترك».

وفي رسالته إلى البطريرك بتاريخ ١٩٨٥/١/٢٥، يكرّر ما كتبه في السنة السابقة: «وفي رسالتي إلى جميع اللبنانيّين، كتبتُ أن يكون كلّ واحد مسؤولاً عن خير بلاده، قادرًا على فحص ضميره، وأن يتنازل عن شيء ما ويعود إلى نفسه، كي تبرز القِيَم التي تجمع وتوحّد». ومنذ إلقاء خطابه أمام مجموعة النوّاب الموارنة، سبق أن قال: «يفترض مثل هذا المشروع أن تكون جميع الأطراف مستعدّة للتخلّي عن شيء ما، ليتغلّب الخير المشترك وحده».

لا يوضّح البابا أي شيء يتناول ذلك التخلّي وتلك التضحيات، لكنّ تكرار هذه الألفاظ يلفت الانتباه ويدعو إلى التفكير، إلى تفكير عمليّ.

وفي ١٩٨٤/٥/١، وبعد تقديم عرض للمأساة اللبنانيّة، كتب البابا: «ولكنّنا على يقين أنّه لا يزال بالإمكان تخطّي هذه الحالة» (رسالة ٢)، وطلب أن ترفع الصلوات» لتكون (للمسيحيّين اللبنانيّين) الشجاعة ليؤمنوا بالمستقبل» (رسالة ٣).

صدر عن دار المشرق